

## دراسة عائلية في قلب العاصفة كتاب تمارا الجلي في العراق المعاصر بقلم شبلي ملاط

لتمارا الجلي معزّة خاصة لديّ. لقد رافقتها في مشوار صعودها الأكاديمي الطويل من سنوات المدرسة الثانوية إلى كلية الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن، فجامعة براون، حتى نيلها شهادة الدكتوراه من جامعة هارفرد برسالة تحولت إلى كتاب متميز عن حقبة تاريخية مغمورة من تاريخ لبنان. دائماً تخطت تمارا أحسن التوقعات، وقد وجدت نفسي دوماً متأثراً بشجاعته خلال المأساة الإغريقية التي عاشها العراقيون ولا يزالون يعيشونها، وهي إضافةً عاشتها ابنةً بارّةً لأحمد الجلي، ولا تزال تعيشها. كما أدري من تجربتي الخاصة في السياسة حجم المحن التي تعانيها العائلة في الشرق الأوسط من خوض فرد لها في دهاليزها الدمويّة، ومن تجربتي هذه، في العراق وفي لبنان، إعجابي بليلى عسيران، والدة تمارا، لما قدّمته من تضحيات بعد قرار زوجها تكريس حياته لإنهاء الدكتاتورية في العراق.

كشخصية قريبة من أنتيغون ابنة أوديس الشهيرة في التراث الإغريقي، إختارت تمارا مسارها الفرويدي التعويضي من خلال دراستها العلمية. وقد أصدرت مؤخراً كتاباً وافياً عن تاريخ آل الجلي خلال القرن المنصرم بعنوان "متأخرة عن موعد الشاي في قصر الغزال" (•) "Late for tea at the Deer Palace" يروي، أسوة بكتاب "البجع البري" الشهير لسيرة ثلاثة أجيال من النساء خلال عبورهنّ مآسي القمع والاضطهاد في الصين المعاصرة، يروي مسارات شخصية في التاريخ العراقي المضطرب وسنوات المنفى الطويلة - قصة الكتاب معاناة نساء عائلة كان أهلها من أغنى ملاكي الاراضي وأرفع التجار في حقبة عراق ما قبل صدام، لاسيما بعين جدة تمارا الـ "بيبي بسام" (1989-1900). والكتاب يعبر بقوة أكبر من تلك التي قدمتها جنغ شانغ في رواية "البجع البري" لنساء ثلاث كُنّ نساء صينيات عاديّات، فشخصيات "متأخرة عن موعد الشاي" اختبرن سلطة كبيرة في العراق على امتداد القرن. هذه المقاربة الحميمة للحدث التاريخي تجعل كتاب الدكتورة تمارا طاغياً على حسّ القارئ العميق بالتاريخ العالمي، ينقله من خلال العدسة العراقية أسطورةً شاجيةً تشبه عراقياً مآسي عائلة كينيدي في الولايات المتحدة.

يتناول كتاب تمارا الجلي أربع حقبات من التاريخ العراقي المعاصر. ولكونها مؤرخة محترفة، فهي قادرة على إبراز كل حقبة منها بعلامة مميزة توصّفها بفهم فواصلها الزمنية عبر مئة ونيف سنة. فيغطيّ الكتاب في الجزء الأول نهاية الهيمنة العثمانية حتى انهيارها المدوّي خلال الحرب العالمية الأولى، حينما لمع نجمُ الجدّ الأكبر عبد

الحسين (1879-1939) رجل سياسة وتجارة يتمتع بالفطنة على جانبي عالمهما الصعب. أما الجزآن الثاني والثالث، فيركزان على صعود ابنه هادي (1898-1988)، وهو الشخصية الوطنية التي كان لها الحضور القوي في عالم السياسة الذي سيطر عليه البريطانيون، ليتحول التركيز بعد ذلك إلى حياته في المنفى الموجه الطويل بعد عام 1958، حين سيق أبنائه إلى السجن. ويأتي الجزء الرابع على الصراع المرير مع صدام حسين والحكم الأميركي المخيب للأمل الذي تلاه. وعبر كل ذلك، كانت نساء عائلة الجلبي في قلب الحدث، فالسرد يسري في ما شهدته عيونهن من تاريخ عراقي قسا عليهنّ، والأسلوب يعطي لحظات روائية قوية كما في الإذلال الذي تعرضت له "بيبي" عندما قررت تحمّل أيّ معاناة لإخراج ابنها رشدي من السجن .

قد يلجأ القارئ إلى الكتاب لفهم مخاض عراق اليوم بدور أحمد الجلبي فيه على وجه الخصوص. القارئ هذا يصاب بخيبة الأمل، ومن الأفضل أن يقتني سيرة خاصة بالجلبي، وعنوانه "الرجل الذي جرّ أميركا إلى الحرب " The man who took America to war ولو كانت هذه السيرة لا تتمتع للأسف باطلاع كافٍ على موضوعه جراء انقطاع مؤلّفه عنه ولجوئه إلى المصادر الثانوية وغير الدقيقة في البحث . إنّ أهدأ في العالم لا يملك الوصول إلى أحمد كما هو متاح لتماما. لكن، ورغم محبّتها المعروفة لوأدها، ولأسباب تتعلق بتواضعها وموانع مهنية عن الصلة العائلية من الأحسن تركها للتحليل النفسي، بل بحكم إدراكها الواعي لخيار أكثر شمولاً، فإن الكتاب لن يفي توقعات القارئ الطبيعية لمعرفة سرّ ذلك الرجل المحوري في تاريخ العراق المعاصر.

إنها مأساة اغريقية حقاً، قصة تمارا الجلبي. ففي حياة عائلة كينيدي العراقية قسوة منقطعة النظير في اتصالها عبر الأجيال، وصعب جداً على فتاة محبة أن تكون ابنة أحمد الجلبي. فالشك به في عين كل متحدث معها عندما يطال الحوار رجلاً جاء بجحافل أميركا إلى العراق، ما بين مكائد المنطقة وإراقة الدماء التي بدأت ولم تنته بعد. أما في شهادتي الخاصة، وقد عرفت أحمد الجلبي لأكثر من 20 عاماً، حتى أنني شاركته بعض لحظات السجن في إيران، ورغم خلافات عميقة معه وصلت إلى الغضب أحياناً، فشهادتي المقتضبة أنه رجل شجاع وشريف، فيه ما هو في العبارة الانكليزية ما قد يكون أكبر من حجم الحياة نفسها .

لا يملأ كتاب تمارا إذا الفراغ الذي لم تشأ ملاءه أصلاً، فأحمد ليس موضوع "متأخرةً عن موعد الشاي في قصر الغزال"، وعملها مقتصر على سعيها إلى ما هو أبعد منه، عند بيبي وهادي والأعمام والخالات. كما أنني تأثرت جداً باختيارها بطل قصتها "العمو حسن" الذي أعرفه كذلك بشكل جيد، وهو الرجل الذي يحظى باحترام واسع في العراق والعالم. كفى أن تسأل الرئيس جلال طالباني عن الأستاذ الذي رفض فصله من كلية القانون في بغداد في منتصف الخمسينات من القرن الماضي، وأن تسأل طلابه وكادر الجامعة الإسلامية التي يترأسها وهو في التسعين من عمره، هو الرجل الضرير صاحب أكثر من عشرين كتاباً. لقد أهدت تمارا كتابها إلى عمها، وقد أحسنت الخيار، ولعمّها أن يفخر بها لهذا السّفَر الدّقيق الرّقيق .

• صدر كتاب تمارا الجلبي "متأخرةً عن موعد الشاي في قصر الغزال: أحلام عائلتي العراقية الضائعة" عن دار هاربر .

(محام وأستاذ في القانون، حالياً أستاذ زائر في كلية الحقوق بجامعة هارفارد)